سورة الشرح

ثمان آيات مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك، **وفي شرح الصدر قولان:**

الأول: ما روي أن جبريل عليه السلام أتاه، وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ثم ملأه علمًا وإيمانًا، ووضعه في صدره.

واعلم أن القاضي طعن في هذه الرواية من وجوه: **احدها:** أن الرواية أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته. **وثانيها:** أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر. **ثالثها:** أنه لا يصح أن يملأ القلب علمًا، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم. **والجواب عن الأول:** أن تقديم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا، وذلك هو المسمى بالإرهاص، ومثله في حق الرسول عليه السلام كثير. وأما الثاني والثالث: فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول عليه السلام علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي ويحجم عن الطاعات، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظبًا على الطاعات محترزًا عن السيئات، فكان ذلك كالعلامة للملائكة على كون صاحبه معصومًا، وأيضًا فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

والقول الثاني: أن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلى المعرفة والطاعة، ثم ذكروا فيه وجوهًا: **احدها:** أنه عليه السلام لما بُعث إلى الجن والإنس فكان يضيق صدره عن منازعة الجن والإنس والبراءة من كل عابد ومعبود سوى الله، فآتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغر عنده كل شيء احتمله من المشاق، وذلك بأن أخرج عن قلبه جميع الهموم، وما ترك فيه إلا هذا الهم الواحد، فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال، ولا يبالي بما يتوجه إليه من إيذائهم، حتى صاروا في عينه دون الذباب، لم يجبن خوفًا من وعيدهم، ولم يمل إلى مالهم، وبالجملة فشرح الصدر عبارة عن علمه بحقارة الدنيا وكمال الآخرة، ونظيره قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وروي أنهم قالوا: يا رسول الله أينشرح الصدر؟ قال: «نَعَمْ»، قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «التَّجَافِي عَنِ الْغُرُورِ،

وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالْإِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ» وتحقيق القول فيه أن صدق الإيمان بالله ووعده ووعيده يوجب للإنسان الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد للموت . **وثانيها:** أنه انفتح صدره حتى أنه كان يتسع لجميع المهمات لا يقلق ولا يضجر ولا يتغير، بل هو في حالتي البؤس والفرح منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كُلف به، والشرح التوسعة، ومعناه الإراحة من الهموم، والعرب تسمي الغم والهم ضيق صدر كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر: ٩٧]، **وههنا سؤالات: الأول:** لمَ ذكر الصدر ولم يذكر القلب؟ **والجواب:** لأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥] فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب، وقال محمد بن علي الترمذي: القلب محل العقل والمعرفة، وهو الذي يقصده الشيطان، فالشيطان يجيء إلى الصدر الذي هو حصن القلب، فإذا وجد مسلكًا أغار فيه ونزل جنده فيه، وبث فيه من الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذٍ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة، وإذا طرد العدو في الابتداء منع وحصل الأمن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية.

السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ولم يقل ألم نشرح صدرك؟ **والجواب من وجهين: أحدهما:** كأنه تعالى يقول لام بلام، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجلي كما قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] فأنا أيضًا جميع ما أفعله لأجلك. **وثانيها:** أن فيها تنبيهًا على أن منافع الرسالة عائدة إليه عليه السلام، كأنه تعالى قال: إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي.

السؤال الثالث: لمَ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ولم يقل ألم أشرح؟ **والجواب:** إن حملناه على نون التعظيم، فالمعنى أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها، وإن حملناه على نون الجميع، فالمعنى كأنه تعالى يقول: لم أشرحه وحدي بل أعملت فيه ملائكتي، فكنتَ ترى الملائكة حواليك وبين يديك حتى يقوى قلبك، فأديت الرسالة وأنت قوي القلب ولحقتهم هيبة، فلم يجيبوا لك جوابًا، فلو كنت ضيق القلب لضحكوا منك، فسبحان من جعل قوة قلبك جبنًا فيهم، وانشراح صدرك ضيقًا فيهم!!

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال المبرد: هذا محمول على معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ لا على لفظه؛ لأنك لا تقول (ألم وضعنا) ولكن معنى (ألم نشرح) قد شرحنا، فحمل الثاني على معنى الأول لا على ظاهر اللفظ؛ لأنه لو كان معطوفًا على ظاهره لوجب أن يقال: ونضع عنك وزرك.

المسألة الثانية: معنى الوزر ثقل الذنب، وقد مر تفسيره عند قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ٣١] وهو كقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وأما قوله: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ فقال علماء اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سُمع له نقيض أي صوت خفي، وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع، أو البعير إذا أثقله الحمل، فهو مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ من أوزاره.

المسألة الرابعة: احتج بهذه الآية من أثبت المعصية للأنبياء عليهم السلام. **والجواب عنه من وجهين: الأول**: أن الذين يجوزون الصغائر على الأنبياء عليهم السلام حملوا هذه الآية عليها، لا يقال: إن قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يدل على كونه عظيمًا، فكيف يليق ذلك بالصغائر؟! لأنا نقول: إنما وصف ذلك بإنقاض الظهر مع كونها مغفورة لشدة اغتمام النبي ﷺ بوقوعه منه وتحسره مع ندمه عليه، وأما إنما وصفه بذلك لأن تأثيره فيما يزول به من الثواب عظيم، فيجوز لذلك ما ذكره الله تعالى. هذا تقرير الكلام على قول المعتزلة، وفيه إشكال، وهو أن العفو عن الصغيرة واجب على الله تعالى عند القاضي، والله تعالى ذكر هذه الآية في معرض الامتنان، ومن المعلوم أن الامتنان بفعل الواجب غير جائز. **الوجه الثاني**: أن يُحمل ذلك على غير الذنب، وفيه وجوه: **أحدها**: قال قتادة: كانت للنبي ﷺ ذنوب سلفت منه في الجاهلية قبل النبوة، وقد أثقلته فغفرها له. **وثانيها**: أن المراد منه تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له. **وثالثها**: الوزر ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل. وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قوَّاه الله، وقال له: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]. **ورابعها**: أنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، ماذا يصنع في حقهم إلى أن قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فأمنه من العذاب في العاجل، ووعد له الشفاعة في الآجل. **وخامسها**: معناه عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك لو كان ذلك الذنب حاصلاً، فسمى العصمة وضعًا مجازًا، فمن ذلك ما روي أنه حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة ليسمع، فضرب الله على أذنه فلم يوقظه إلا حر الشمس من الغد. **وسادسها**: الوزر ما أصابه من الهيبة والفزع في أول ملاقاة جبريل عليه السلام، حين أخذته الرعدة، وكاد يرمي نفسه من الجبل، ثم تقوى حتى ألفه وصار بحالة كاد يرمي بنفسه من الجبل لشدة اشتياقه. **وسابعها**: الوزر ما كان يلحقه من الأذى والشتم حتى كاد ينقض ظهره وتأخذه الرعدة، ثم قواه الله تعالى حتى صار بحيث كانوا يدمون وجهه، و(هو) يقول: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي». **وثامنها**: لئن كان نزول السورة بعد موت أبي طالب وخديجة، فلقد كان فراقهما عليه وزرًا عظيمًا، فوضع عنه الوزر برفعه إلى السماء حتى لقيه كل ملك وحياه فارتفع له الذكر، فلذلك قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ **وتاسعها**: أن المراد من الوزر والثقل الحيرة التي كانت له قبل البعثة، وذلك أنه بكمال عقله لما نظر إلى عظيم نعم الله تعالى عليه، حيث أخرجه

من العدم إلى الوجود وأعطاه الحياة والعقل وأنواع النعم، ثقل عليه نعم الله وكاد ينقض ظهره من الحياء؛ لأنه عليه السلام كان يرى أن نعم الله عليه لا تنقطع، وما كان يعرف أنه كيف كان يطيع ربه، فلما جاءته النبوة والتكليف وعرف أنه كيف ينبغي له أن يطيع ربه، فحينئذٍ قل حياؤه وسهلت عليه تلك الأحوال، فإن اللئيم لا يستحي من زيادة النعم بدون مقابلتها بالخدمة، والإنسان الكريم النفس إذا كثر الإنعام عليه وهو لا يقابلها بنوع من أنواع الخدمة، فإنه يثقل ذلك عليه جدًّا، بحيث يميته الحياء، فإذا كلفه المنعم بنوع خدمة سهل ذلك عليه وطاب قلبه.

قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾

واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسموات، اسمه مكتوب على العرش، وأنه يُذكر معه في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه خُتمت به النبوة، وأنه يُذكر في الخُطب والأذان ومفاتيح الرسائل وعند الختم، وجعل ذكره في القرآن مقرونًا بذكره: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣] و﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤] ويناديه باسم الرسول والنبي، حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى، وأيضًا جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] كأنه تعالى يقول: أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويُصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة، فهم يمتثلون في الفريضة أمري، وفي السنة أمرك، وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] لا تأنف السلاطين من أتباعك، بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يُبلغون وعظك بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك، ويسلمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باقٍ إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن المشركين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ بالفقر، ويقولون: إن كان غرضك من هذا الذي تدعيه طلب الغنى، جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة. فشق ذلك على رسول الله ﷺ حتى سبق إلى وهمه أنهم إنما رغبوا عن الإسلام لكونه فقيرًا حقيرًا عندهم، فعدَّد الله تعالى عليه منته في هذه السورة، وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١، ٢] أي ما كنت فيه من أمر الجاهلية، ثم وعده بالغنى

في الدنيا ليزيل عن قلبه ما حصل فيه من التأذي بسبب أنهم عيروه بالفقر، والدليل عليه دخول الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كأنه تعالى قال: لا يحزنك ما يقول وما أنت فيه من القلة، فإنه يحصل في الدنيا يسر كامل.

المسألة الثانية: قال ابن عباس: يقول الله تعالى: خلقت عسرًا واحدًا بين يسرين، فلن يغلب عسر يسرين. وروى مقاتل عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**»(١) وقرأ هذه الآية، وفي تقرير هذا المعنى وجهان: **الأول**: قال الفراء والزجاج: العسر مذكور بالألف واللام، وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئًا واحدًا. وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير، فكان أحدهما غير الآخر، وزيف الجرجاني هذا وقال: إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفًا، إن مع الفارس سيفًا، يلزم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية. **الوجه الثاني**: أن تكون الجملة الثانية تكريرًا للأولى، كما كرر قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: ١٠] ويكون الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب، كما يكرر المفرد في قولك: جاءني زيد زيد. والمراد من اليسرين: يسر الدنيا وهو ما تيسر من استفتاح البلاد، ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] وهما حسن الظفر وحسن الثواب، فالمراد من قوله: (لن يغلب عسر يسرين) هذا، وذلك لأن عسر الدنيا بالنسبة إلى يسر الدنيا ويسر الآخرة كالمغمور القليل، **وههنا سؤالان**:

الأول: ما معنى التنكير في اليسر؟ **جوابه**: التفخيم، كأنه قيل: إن مع اليسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا عظيمًا، وأي يسر.

السؤال الثاني: اليسر لا يكون مع العسر؛ لأنهما ضدان فلا يجتمعان. **الجواب**: لما كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل، كان مقطوعًا به فجعل كالمقارن له.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

وجه تعلق هذا بما قبله أنه تعالى لما عَدَّد عليه نعمه السالفة، ووعدهم بالنعم الآتية، لا جرم بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي فاتعب، يقال: نصب ينصب، قال قتادة والضحاك ومقاتل: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعطك، وقال الشعبي: إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك. وقال مجاهد: إذا فرغت من أمر دنياك فانصب وصلِّ، وقال عبد الله: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل. وقال الحسن: إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة. وقال علي بن أبي

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٧٥) من طريق معمر عن أيوب عن الحسن... به مرسلاً ومراسيل الحسن ضعيفة، وكذلك قاله الألباني في (الضعيفة) (٤٣٤٢).

طلحة: إذا كنت صحيحًا فانصب، يعني اجعل فراغك نصبًا في العبادة. يدل عليه ما روي أن شريحًا مر برجلين يتصارعان فقال: الفارغ ما أُمر بهذا إنما قال الله: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ وبالجملة فالمعنى أن يواصل بين بعض العبادات وبعض، وأن لا يخلي وقتًا من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى.

وأما قوله: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ففيه وجهان: **أحدهما:** اجعل رغبتك إليه خصوصًا ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه. **وثانيها:** ارغب في سائر ما تلتمسه دينًا ودنيا ونصرة على الأعداء إلى ربك، وقرئ (فرغِّب) أي رغِّب الناس إلى طلب ما عنده.

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «ألم نشرح»

مكيةٌ في قول الجميع. وهي ثماني آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾

شَرْحُ الصَّدْرِ: فَتْحُه، أي: أَلَمْ نَفْتَحْ صدرَكَ للإسلام. وروى أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: أَلَمْ نُلَيِّن لك قلبكَ. وروى الضَّحاكُ عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، أَيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ؟ قال: «نعم، ويَنْفَسِحُ». قالوا: يا رسولَ الله، وهل لذلك علامةٌ؟ قال: «نَعَم، التَّجَافي عن دارِ الغرورِ، والإنابةُ إلى دارِ الخلود، والاعتدادُ للموتِ قَبْلَ نزولِ الموت»[(١)]. وقد مضى هذا المعنى في «الزمر» عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الآية: ٢٢].

ورُوي عن الحسن قال: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ قال: مُلِئَ حكماً وعِلماً[(٢)].

وفي الصحيح عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة ـ رجلٍ من قومه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «فبينما أنا عند البيتِ بينَ النائمِ واليقظان إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحدُ [بين] الثلاثةِ، فأُتِيْتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ، فيها ماءُ زمزمَ، فشُرِحَ صدري إلى كذا وكذا» قال قتادة: قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفلِ بطني، قال: «فاستُخْرِجَ قلبي، فغُسِلَ قلبي بماءِ زمزمَ، ثم أُعيدَ مكانَه، ثم حُشِيَ إيماناً وحِكْمةً». وفي الحديث قِصة [طويلة][(٣)].

---

(١) الوسيط ٤/ ٥١٥.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٩٦، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٣.

(٣) صحيح مسلم (١٦٤)، وسنن الترمذي (٣٣٤٦)، واللفظ له، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه أحمد (١٧٨٣٣) و(١٧٨٣٥)، والبخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧). وهو من طريق قتادة عن أنس به.

وروي عن النبيِّ ﷺ قال: «جاءني مَلَكان في صورةِ طائرٍ، معهما ماءٌ وثلجٌ، فشَرَحَ أحدُهما صدري، وفَتَحَ الآخَرُ بمنقاره فيه فغَسَلَه»[١].

وفي حديثٍ آخر قال: «جاءني مَلَكٌ فشَقَّ عن قلبي، فاستخرج منه عذرة[٢]، وقال: قَلبُكَ وَكيعٌ، وعيناك بصيرتان، وأُذناك سميعتان، أنت محمدٌ رسولُ الله، لسانُكَ صادِقٌ، ونَفْسُكَ مُطْمَئنَّةٌ، وخُلقُكَ قُثَم، وأنت قيِّم»[٣]. قال أهلُ اللغةِ: قولُه: «وكيع» أي: يَحفَظُ ما يُوْضَعُ فيه. يقال: سِقاءٌ وكيع، أي: قويٌّ يحفظُ ما يوضَعُ فيه. واستَوْكَعتْ مَعدتُه، أي: قويت. وقولُه: «قُثَم» أي: جامع. يقال: رجلٌ قَثوم للخير، أي: جامعٌ له.

ومعنى «أَلَم نَشْرَحْ»: قد شَرَحْنا، الدليلُ على ذلك قولُه في النَّسق عليه: «ووَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ»، فهذا عطفٌ على التأويل، لا على التنزيل؛ لأنَّه لو كان على التنزيل لقال: ونَضَعْ عنكَ وِزْرَكَ. فدلَّ هذا على أنَّ معنى «ألم نشرح»: قد شَرَحنا. و«لم» حَجْدٌ، وفي الاستفهام طَرَفٌ من الجحد، وإذا وقع حَجْدٌ، رجع إلى التحقيق، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] ومعناه: اللهُ أَحْكَمُ الحاكِمين، وكذا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. ومثلُه قولُ جرير يَمْدَحُ عبد الملك بن مروان:

أَلَسْتُمْ خيرَ مَن ركبَ المطايا ... وأنْدَى العالَمينَ بطونَ راحِ[٤]

المعنى: أنتم كذا.

---

(١) هو في السير والمغازي لابن إسحاق ص٥١ من رواية يونس بن بكير، عن أبي سنان الشيباني، عن حبيب بن أبي ثابت، عن يحيى بن جعدة قال: قال رسول الله ﷺ...، وذكره، وهو حديث مرسل.

(٢) في (د) و(ي): غدرة، ولم نقف على هذا اللفظ عند غير القرطبي، وجاء في خبر آخر: فأخرج شيئاً كهيئة العلقة، ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٣ .

(٣) أخرجه الدارمي (٥٣) عن عبد الرحمن بن غنم قال: نزل جبريل على رسول الله ﷺ فشق بطنه، ثم قال جبريل: قلب وكيع..، وذكره.

(٤) ديوان جرير ١/ ٨٩ ، وسلف ٤/ ٣١٢ .

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، أي: حَطَطْنا عنكَ ذَنْبكَ. وقرأ أنس: «وحَلَلْنا»، «وحَطَطْنا»(١). وقرأ ابن مسعود: «وحَلَلْنا عنكَ وِقْرَك»(٢).

وهذه الآيةُ مثلُ قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. قيل: الجميعُ كان قَبْلَ النبوَّة. والوِزْرُ: الذَّنْبُ، أي: وَضَعْنا عنكَ ما كنتَ فيه من أمر الجاهلية؛ لأنَّه كان ﷺ في كثيرٍ من مذاهب قومه، وإنْ لم يكن عبَدَ صنماً ولا وَثناً. قال قتادة والحسن والضحاك: كانت للنبيِّ ﷺ ذنوبٌ أَثْقلَتْه، فغَفَرها الله له(٣).

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقلَه حتى سُمِعَ نقيضُه، أي: صوتُه. وأهلُ اللغةِ يقولون: أنْقضَ الحِملُ ظَهْرَ الناقةِ: إذا سَمِعْتَ له صريراً من شدَّة الحمل. وكذلك: سمعتُ نقيضَ الرَّحْلِ، أي: صَريرَه. قال جميل(٤):

وحتى تَداعَتْ بالنَّقيضِ حِبالُه ... وهَمَّتْ بَواني زَوْرِه أنْ تَحَطَّما

«بَواني زَوْرِه»: أي: أُصولُ صَدْرِه. فالوِزْرُ: الحملُ الثقيل.

قال المحاسِبيُّ: يعني ثِقَلَ الوِزْرِ لو لم يَعْفُ الله عنه، «الذي أنْقَضَ ظهرَكَ» أي: أثْقَلَه وأوْهَنه. قال: وإنَّما وُصِفَتْ ذنوبُ الأنبياءِ بهذا الثِّقلِ ـ مع كونها مغفورةً ـ لشدَّةِ اهتمامِهم بها، ونَدَمِهم منها، وتحسُّرِهم عليها.

وقال السُّدِّي: «ووَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ»، أي: وحَطَطْنا عنك ثِقْلَكَ(٥). وهي في

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥، والمحتسب ٢/ ٣٦٧.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٥، والنكت والعيون ٦/ ٢٩٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧.

(٣) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠، والطبري ٢٤/ ٤٩٣.

(٤) كذا في النسخ، والصواب أنه لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١٩، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٧/ ٣٦٤.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٩٧.

قراءةِ عبدِ الله بن مسعود: «وحَطَطْنا عنكَ وِقْرَك». أي[١]: حَطَطْنا عنك ثقلَ آثامِ الجاهلية.

قال الحسين بن الفضل: يعني الخطأَ والسَّهْوَ. وقيل: ذنوبَ أمَّتِك، أضافَها إليه لاشتغالِ قلبِه بها. وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدةَ: خفَّفْنا عنكَ أعباءَ النبوَّةِ والقيام بها، حتى لا تَثْقُلَ عليك[٢].

وقيل: كان في الابتداء يَثْقلُ عليه الوحيُ، حتى كاد يرمي نفسَه من شاهقِ الجبل، إلى أن جاءه جبريلُ وأَراه نَفْسَه، وأُزيلَ عنه ما كان يخاف من تغيُّرِ العقل.

وقيل: عصمناك عن احتمالِ الوِزر، وحَفِظْناكَ قبلَ النبوَّةِ في الأربعين من الأدناس؛ حتى نزل عليك الوحيُ وأنت مُطَهَّرٌ من الأدناس[٣].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾

قال مجاهد: يعني بالتأذين. وفيه يقول حسان بن ثابت:

أغَرُّ عليه للنبوَّةِ خاتَمٌ ... من الله مشهودٌ يَلوحُ ويُشْهَدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسْمِه ... إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أشْهدُ[٤]

ورَوَى الضحاكُ عن ابن عباس قال: يقولُ له: لا ذُكِرتُ إلَّا ذُكِرتَ معي في الأذان والإقامةِ والتشهُّدِ، ويومَ الجمعةِ على المنابر، ويومَ الفِطْرِ، ويومَ الأضحى، وأيامَ التَّشْريق، ويومَ عَرَفةَ، وعند الجِمارِ، وعلى الصفا والمروةِ، وفي خطبة النكاح، وفي مشارقِ الأرض ومَغارِبِها. ولو أنَّ رجلاً عَبَدَ الله جلَّ ثناؤه، وصدَّق

---

(١) قبلها في (ظ) و(م): وقيل. وتنظر قراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص١٧٥، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٥. وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧ عن أبيٍّ ﷺ.

(٢) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/ ٥٠٢.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٧.

(٤) ديوان حسان ص١٣٤.

بالجنةِ والنارِ وكلِّ شيء، ولم يَشْهَدْ أنَّ محمداً رسولُ الله، لم يَنْتَفِع بشيءٍ وكان كافراً[(١)].

وقيل: أي: أَعْلَيْنا ذِكْرَكَ، فذَكَرْناكَ في الكتب المنزلةِ على الأنبياء قَبْلَكَ، وأمَرناهم بالبشارة بك، ولا دِينَ إلَّا ودِينُك يَظْهَرُ عليه.

وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكةِ في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفعُ في الآخرةِ ذِكْرَكَ بما نُعْطيكَ من المقام المحمود، وكَرائمِ الدرجات.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾

أي: إنَّ مع الضِّيْقَةِ والشدَّةِ يُسْراً، أي: سعةً وغِنًى. ثم كَرَّر فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فقال قومٌ: هذا التكريرُ تأكيدٌ للكلام، كما يقال: ارْمِ ارْمِ، اعْجَلْ اعْجَلْ؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤]. ونظيرُه في تكرارِ الجوابِ: بلَى بلَى، لا لا. وذلك للإطناب والمبالغة؛ قاله الفرّاء. ومنه قولُ الشاعر:

هَممتُ بنفسِيَ بعضَ الهموم ... فأَوْلَى لنفسيَ أَوْلَى لها[(٢)]

وقال قومٌ: إنَّ من عادةِ العربِ إذا ذَكَروا اسماً معرَّفا ثم كرَّروه، فهو هو. وإذا نكَّروه ثم كَرَّروه فهو غيرُه. وهما اثنان؛ ليكونَ أقوى للأمل، وأَبْعثَ على الصَّبر؛ قاله ثعلب[(٣)].

وقال ابن عباس: يقولُ الله تعالى خلقتُ عُسراً واحداً، وخلقتُ يُسْرَيْنِ، ولن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَين[(٤)].

---

(١) الوسيط ٤/٥١٦ من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٢) البيت للخنساء، وهو في ديوانها ص١٢١، والنكت والعيون ٦/٢٩٨، والكلام منه، ورواية الديوان: هممت بنفسي كلَّ الهموم...

(٣) بنحوه في النكت والعيون ٦/٢٩٨، والوسيط ٤/٥١٨.

(٤) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/٢٧٥ مختصراً بلفظ: لا يغلبُ يُسْرَيْن عسرٌ واحد.

وجاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ في هذه السورة أنه قال: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»(١).

وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، لو كان العُسْرُ في جُحْرٍ، لطلبه اليُسْرُ حتى يدخلَ عليه؛ ولن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن(٢).

وكتب أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح إلى عمر بن الخطاب يذكُر له جموعاً من الروم، وما يتخوَّفُ منهم؛ فكتب إليه عمرُ رضي الله عنهما: أمَّا بعدُ، فإنه مهما ينزلُ بعبدٍ مؤمنٍ من مَنزلِ شِدَّةٍ، يجعلُ الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلبَ عسرٌ يسرين، وإنَّ الله تعالى يقولُ في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢](٣).

وقال قومٌ منهم الجُرْجانيُّ: هذا قولٌ مدخولٌ؛ لأنَّه يجبُ على هذا التدريجِ إذا قال الرجل: إنَّ مع الفارسِ سيفاً، إنَّ مع الفارس سيفاً، أن يكون الفارسُ واحداً والسيفُ اثنان. والصحيحُ أن يقال: إنَّ الله بعث نبيَّه محمداً ﷺ مُقِلًّا مُخِفًّا، فعيَّره المشركون بفَقْرِه، حتى قالوا: نجمع لك مالاً، فاغتمَّ وظنَّ أنهم كذَّبوه لفقره؛ فعزَّاه الله، وعدَّدَ نِعمَه عليه، ووَعَدَه الغنَى بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: لا يَحْزُنكَ ما عيَّروك به من الفقر؛ فإنَّ مع ذلك العُسْرِ يسراً عاجلاً، أي: في الدنيا. فأنْجزَ له ما وَعَدَه؛ فلم يَمُتْ حتى فَتَح عليه الحجازَ واليمن، ووسَّع ذاتَ يَدِه، حتى كان يعطي الرجلَ المئتين من الإبل، ويَهَبُ الهباتِ السَّنِيَّةَ، ويُعِدُّ لأهله قوتَ سنةٍ. فهذا الفضلُ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠، والطبري ٢٤/ ٤٩٥-٤٩٦ عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٦ عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً أيضاً. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦: وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من رواية عطية عن جابر موصولاً، وإسناده ضعيف، وفي الباب عن عمر ﷺ ذكره مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه عمر ﷺ... وهذا أصح طرقه. اهـ. وسيأتي خبر عمر ﷺ لاحقاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠-٣٨١، والطبري ٢٤/ ٤٩٦.

(٣) الموطأ ٢/ ٤٤٦.

كلِّه في أمر الدنيا، وإنْ كان خاصًّا بالنبيِّ ﷺ، فقد يدخلُ فيه بعضُ أمَّتِه إن شاء الله تعالى. ثم ابتدأ فضلاً آخَرَ من الآخرة، وفيه تَأسِيةٌ وتَعْزِيةٌ له ﷺ، فقال مبتدئاً: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فهو شيءٌ آخَرُ. والدليلُ على ابتدائه، تَعرِّيهِ من فاءٍ أو واوٍ وغيرهما من حروفِ النَّسقِ التي تدلُّ على العطف. فهذا وعدٌ عامٌّ لجميع المؤمنين، لا يخرجُ أحدٌ منه، أي: إنَّ مع العُسْرِ في الدنيا للمؤمنين يُسْراً في الآخرة لا مَحالةَ. وربَّما اجتمع يُسْرُ الدنيا ويُسْرُ الآخرة. والذي في الخبر: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» يعني العسر الواحد لن يغلبهما، وإنَّما يغلبُ أحدَهما إنْ غلبَ، وهو يُسْرُ الدنيا، فأمَّا يُسْرُ الآخرةِ فكائنٌ لا مَحالةَ، ولن يَغْلِبَه شيء[1].

ويقال: «إنَّ مع العسر» وهو إخراجُ أهلِ مكةَ النبيَّ ﷺ من مكةَ، «يسراً» وهو دخولُه يومَ فَتْحِ مكةَ مع عشرةِ آلاف رجلٍ، مع عِزٍّ وشَرَف.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ قال ابن عباس وقتادةُ: فإذا فَرَغْتَ من صلاتك ﴿فَٱنصَبْ﴾ أي: بالِغْ في الدعاء وسَلْه حاجتك[2].

وقال ابن مسعود: إذا فَرغْتَ من الفرائض فانصَبْ في قيام الليل[3].

وقال الكلبيُّ: إذا فَرغْتَ من تبليغ الرسالةِ «فانصَبْ» أي: استَغْفِرْ لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات[4].

وقال الحسن وقتادةُ أيضاً: إذا فَرغْتَ من جهادِ عدوِّكَ، فانْصَبْ لعبادةِ ربِّك[5].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٥١٩، والبغوي ٤/ ٥٠٣ بنحوه عن كتاب النظم للجرجاني.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٤٩٧-٤٩٨ . وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٨١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٨ ، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٣ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٩٩ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٤٩٨ عن الحسن وابن زيد. قال ابن عطية في =

وعن مجاهد: «فإذا فَرغْتَ» من دنياك، «فانْصَبْ» في صلاتك[١]. ونحوه عن الجنيد[٢]؛ قال الجنيد: إذا فَرغْتَ من أمرِ الخَلْقِ، فاجتَهِدْ في عبادة الحقِّ.

قال ابن العربيِّ[٣]: ومن المُبتدعةِ مَن قرأ هذه الآيَةَ: «فانْصِبْ» بكَسْرِ الصَّاد والهمز من أوَّله[٤]، وقالوا: معناه: انْصِبِ الإمامَ الذي تستخلفُه. وهذا باطلٌ في القراءة، باطلٌ في المعنى؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يَسْتَخْلِفْ أحداً. وقرأها بعضُ الجُهَّالِ: «فانْصَبَّ» بتشديدِ الباءِ، معناه: إذا فَرغْتَ من الجهاد، فجِدَّ في الرجوع إلى بلدك. وهذا باطلٌ أيضاً قراءةً؛ لمخالفةِ الإجماعِ، لكنَّ معناه صحيحٌ؛ لقوله ﷺ: «السَّفَرُ قطعةٌ من العذاب، يَمنعُ أحدَكم نومَه وطعامَه وشرابَه، فإذا قضَى أحدُكم نَهْمَتَه، فَلْيُعجِّلِ الرُّجوعَ إلى أهْلِه»[٥]. وأشدُّ الناسِ عذاباً وأسوأهم مَباءً ومآباً، مَن أخذَ معنًى صحيحاً، فركَّب عليه مِن قِبَلِ نَفْسِه قراءةً أو حديثاً، فيكون كاذباً على الله، كاذباً على رسوله، ومَن أَظْلَمُ ممَّن افترى على الله كذباً.

قال المَهْدَوِيُّ: ورُوي عن أبي جعفر المنصور أنه قرأ: «ألم نشرحَ لك صدرك» بفتحِ الحاء[٦]، وهو بعيدٌ، وقد يؤوَّلُ على تقدير النونِ الخفيفة، ثم أُبْدِلَتْ النونُ ألفاً في الوَقْفِ، ثم حُمِلَ الوصلُ على الوقف، ثم حذفَ الألف، وأنشد عليه:

اضْرِبَ عنكَ الهمومَ طارِقَها ضَرْبَكَ بالسَّوط قَوْنَسَ الفَرسِ[٧]

= المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٧ : ويعترض هذا التأويل بأن الجهاد فرض في المدينة.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١٤٦)، والطبري ٢٤/ ٤٩٩ .

(٢) في (م): الحسن.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٧-١٩٣٨ .

(٤) يعني همزة الوصل، والقراءة ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٨ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٦٧ ، وأبو حيان في البحر ٨/ ٤٨٩ .

(٥) أخرجه أحمد (٧٢٢٥)، والبخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٦٦ .

(٧) النوادر في اللغة ص١٣ ، والمحتسب ٢/ ٣٦٦ ، وأساس البلاغة (قنس). قال ابن جني: ويقال: إنه مصنوع. ا هـ. وقونس الفرس: ما بين الأذنين. أساس البلاغة (قنس).

أراد: اضرِبَنْ. ورُوي عن أبي السَّمَّالِ: «فإذا فَرِغتَ» بكَسْرِ الراء[١]، وهي لغةٌ فيه. وقرئ: «فرغِّب»[٢] أي: فرغِّب الناسَ إلى ما عنده.

الثانية: قال ابن العربيّ[٣]: روي عن شُريح أنه مرَّ بقومٍ يلعبون يومَ عِيدٍ، فقال: ما بهذا أُمِر الفارغُ[٤]. وفيه نَظَرٌ، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدَّرَقِ والحِرَابِ في المسجد يومَ العيد، والنبيُّ ﷺ ينظُرُ. ودخل أبو بكر في بيتِ رسولِ الله ﷺ على عائشةَ رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصارِ تغنِّيانِ، فقال أبو بكر: أبمزمورِ الشيطانِ في بيتِ رسولِ الله ﷺ؟ فقال: «دَعْهُما يا أبا بكر، فإنه يومُ عيدٍ»[٥]. وليس يلزمُ الدُّؤوبُ على العمل، بل هو مكروهٌ للخَلْق.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥ .

(٢) يعني: «وإلى ربك فرغِّب»، وهي في القراءات الشاذة ص١٧٥ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٨ .

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد لأحمد ص٢٦٢ ، وبنحوه أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٧٦ ، وهناد في الزهد (٦٧٧)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١٣٤ . ووقع في (م) ومطبوع أحكام القرآن: الشارع، بدل: الفارغ، والمثبت من النسخ الخطية ومصادر التخريج.

(٥) أخرجه مع قصة لعب الحبشة بالدرق أحمد (٢٤٥٤١)، والبخاري (٩٤٩) و(٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تفسير سورة ألم نشرح

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعنى : أما شرحنا لك صدرك ، أى : نورناه وجعلناه فَسيحاً رحيباً واسعاً كقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شَرْعه فسيحا واسعاً سمحاً سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة [(١)] ، وقد أورده الترمذى هاهنا . وهذا وإن كان واقعاً ، ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره الذى فُعِل بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضاً ، والله أعلم .

قال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنى محمد بن عبد الرحيم [(٢)] أبو يحيى البزاز[(٣)] ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن محمد بن أبى بن كعب ، حدثنى أبى محمد بن معاذ ، عن معاذ ، عن محمد ، عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة كان جريّاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أولُ ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال : « لقد سألتَ يا أبا هريرة ، إنى لفى الصحراء ابنَ عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال:نعم] [(٤)] فاستقبلانى بوجوه لم أرها [لخلق] [(٥)] قط ،وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلى يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعَضُدى ، لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعانى بلا قَصْر ولا هَصْر . فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ،فقال له : أخرج الغِلّ والحَسَد . فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج شبهُ الفضة ، ثم هز

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير أول سورة الإسراء .
(٢) فى أ : « محمد بن عبد الرحمن » . (٣) فى م ، أ : « البزار » .
(٤، ٥) زيادة من المسند .

إبهام رجلى اليمنى فقال : اغدُ واسلم. فرجعت بها أعدو ، رقة على الصغير ، ورحمةً للكبير » [١] .

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ﴿ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ : الإنقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف فى قوله : ﴿ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى : أثقلك حمله .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ :قال مجاهد: لا أُذكرُ إلا ذُكِرتَ معى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وقال قتادة : رفع اللهُ ذكرَه فى الدنيا والآخرة ،فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

قال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو بن الحارث ، عن دَراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتانى جبريل فقال : إنّ ربى وربك يقول : كيف رفعت ذكرك ؟ قال : الله أعلم . قال : إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معى » ، وكذا رواه ابن أبى حاتم عن يونس بن عبد الأعلى ، به ، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لَهِيعة ، عن دَرَّاج[٢] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا أبو عُمر الحَوضى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت ربى مسألة وَدِدْتُ أنى لم أكن سألته ، قلت : قد كانت قبلى أنبياء ، منهم من سخرت له الريح [٣] ، ومنهم من يحيى الموتى . قال : يا محمد ، ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قال : قلت : بلى يا رب . قال ألم أشرح[٤] لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يا رب » [٥] .

وقال أبو نعيم فى « دلائل النبوة » : حدثنا أبو أحمد الغطريفى ، حدثنا موسى بن سهل الجَونى، حدثنا أحمد بن القاسم بن بَهْرام الهيتى ، حدثنا نصر بن حماد ،عن عثمان بن عطاء ، عن الزهرى ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما فرغت مما أمرنى الله به من أمر السموات والأرض قلت : يا رب ، إنه لم يكن نبى قبلى إلا وقد كرمته ، جعلت إبراهيم خليلا ، وموسى كليما ، وسخرت لداود الجبال ، ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لى ؟ قال : أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله ، أنى لا أذكر إلا ذُكِرْتَ معى ، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ،ولم أعطها أمة ، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشى : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » [٦] .

---

(١) زوائد المسند (٥/ ١٣٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٢٢) : « رجاله ثقات وثقهم ابن حبان » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٥١) .

(٣) فى أ : « البحر » . (٤) فى أ : « ألم نشرح » .

(٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٢٦) من طريق أحمد بن سلمة ، عن عبد الله بن الجراح ، عن حماد بن زيد به ، وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٦) وذكره المؤلف فى البداية والنهاية (٦/ ٢٨٨) ثم قال : « وهذا إسناد فيه غرابة ، ولكن أورد له شاهداً من طريق أبى القاسم بن منيع البغوى ، عن سليمان بن داود المهرانى ، عن حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعاً بنحوه ».

وحكى البغوى ، عن ابن عباس ومجاهد : أن المراد بذلك : الأذان . يعنى :ذكره فيه ، وأورد من شعر حسان بن ثابت :

أغَرّ ، عَلَيه للنبوة خَاتَم ... مِنَ الله من نُور يَلوحُ وَيشْهَد
وَضمَّ الإلهُ اسم النبى إلى اسمه ... إذا قَالَ فى الخَمْس المؤذنُ : أشهدُ
وَشَقَّ لَهُ مِن اسمه ليُجلَّه ... فَذُو العَرشِ محمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ(١)

وقال آخرون : رفع الله ذكره فى الأولين والآخرين ،ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمروا أممهم (٢) بالإيمان به ، ثم شهر ذكره فى أمته فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه .

وما أحسن ما قال الصرصرى ، رحمه الله :

لا يَصِحُّ الأذانُ فى الفَرْضِ إلا ... باسمِه العَذْب فى الفم المرْضى

وقال أيضاً :

[ألَـم تَـر أنَّا لاَ يَصـحُّ أذانُـنَـا ... وَلا فَرْضُنا إنْ لم نُكَرِرْه فيهما] (٣)

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ : أخبر تعالى أن مع العسر يوجَدُ اليسر ، ثم أكد هذا الخبر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا حُميد بن حماد بن خَوَار أبو الجهم ، حدثنا عائذ بن شُريح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى ﷺ جالساً (٤) وحياله حجر ، فقال : « لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ فإن (٥) مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٦) .

ورواه أبو بكر البزار فى مسنده عن محمد بن مَعْمَر ، عن حُميد بن حماد ،به ولفظه : « لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه » ثم قال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، ثم قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح (٧) .

قلت : وقد قال فيه أبو حاتم الرازى : فى حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة، عن رجل ، عن عبد الله بن مسعود موقوفا .

(١) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٤٦٤) .
(٢) فى أ : « أمتهم » . (٣) زيادة من م ، أ . (٤) فى أ : « جالسٌ » وهو خطأ .
(٥) كذا فى م ، أ ، هـ : « إن » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .
(٦) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٥٥) من طريق محمود بن غيلان به ، وقال الحاكم : « هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح » . وقال الذهبى : « تفرد حميد بن حماد ،عن عائذ ، وحميد منكر الحديث كعائذ » .
(٧) مسند البزار برقم (٢٢٨٨) « كشف الأستار » ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤١٦) من طريق محمد بن معمر به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا أبو قَطَن[١]، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن [٢] ثور ، عن مَعْمَر ، عن الحسن قال : خرج النبى ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ، وهو يقول : « لن يَغْلِب عُسْر يسرين ، لن يغلب عسر يسرين ، فإن [٣] مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » .

وكذا رواه من حديث عوف الأعرابى ويونس بن عبيد ، عن الحسن مرسلا [٤] .

وقال سعيد ، عن قتادة : ذُكِرَ لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال : « لن يغلب عسر يسرين » .

ومعنى هذا : أن العسر معرف فى الحالين ، فهو مفرد ،واليسر منكر فتعدد ؛ ولهذا قال : « لن يغلب عسر يسرين» ، يعنى قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، فالعسر الأول عين[٥] الثانى ، واليسر تعدد .

وقال الحسن بن سفيان : حدثنا يزيد بن صالح ،حدثنا خارجة ،عن عباد بن كثير ، عن أبى الزناد ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال: « نزل [٦] المعونة من السماء على قدر المؤونة ،ونزل الصبر على قدر المصيبة » [٧] .

ومما يروى عن الشافعى ،رضى الله عنه ، أنه قال :

صَبرا جَميلا ما أقرَبَ الفَرجا مَن رَاقَب الله فى الأُمور نَجَا
مَن صَدَق الله لَم يَنَلْه أذَى وَمَن رَجَاه يكون حَيثُ رَجَا

وقال ابن دُرَيد : أنشدنى أبو حاتم السجستانى :

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصدر الرحيبُ
وأوطأت المكاره واطمأنت وأرست فى أماكنها الخطوبُ
ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا أغنى بحيلته الأريبُ

---

(١) فى أ : « مطر » .
(٢) فى أ : « حدثنا أبو » .
(٣) كذا فى م ، أ ، هـ : « إن » وهو خطأ . من ابن جرير (٣٠/ ١٥١) .
(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٥١) ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٣٠٩) عن معمر ، عن الحسن به مرسلاً ، وقد جاء موقوفاً على ابن مسعود ، رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٣٠٩) من طريق ميمون عن إبراهيم النخعى عنه ، وجاء مرفوعاً عن جابر، رواه ابن مردويه فى تفسيره ، وقال الحافظ ابن حجر: « إسناده ضعيف ».
(٥) فى م : « هو » .
(٦) فى أ : « نزلت » .
(٧) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٥٠٦) « كشف الأستار » وابن عدى فى الكامل (٤/ ١١٥) من طريق عبد العزيز الدراوردى عن طارق وعباد بن كثير ، عن أبى الزناد به . وقال البزار : « لا نعلمه عن أبى هريرة إلا بهذا الإسناد » . وقال ابن عدى : « وطارق بن عمار يعرف بهذا الحديث » . والحديث معلول . انظر : العلل لابن أبى حاتم (٢/ ١٢٦،١٣٣) والكامل لابن عدى (٢٣٨/٦،٤٠٢،٣٧/٢،١١٥/٤) .

أتاك على قُنوط منك غَوثُ يمن به اللطيف المستجيبُ
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

وقال آخر :

وَلَرُب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا ،وعند الله منها المخرج
كملت ، فلما استحكمت حلقاتها فرجت ، وكان يظنها لا تفرج

وقوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ أى : إذا فَرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة . ومن هذا القبيل قوله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته : « لا صلاة بحضرة طعام ،ولا وهو يدافعه الأخبثان » (١). وقوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدؤوا بالعَشَاء » (٢) .

قال مجاهد فى هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة ، فانصب لربك ،وفى رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب فى حاجتك ،وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وعن ابن عياض نحوه . وفى رواية عن ابن مسعود : ﴿ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ يعنى : فى الدعاء .

وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أى : من الجهاد ﴿فَانصَبْ﴾ أى: فى العبادة.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ : قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ، عز وجل .

آخر تفسير سورة « ألم نشرح » ولله الحمد

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٦٠) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٦٥) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

سورة أَلَمْ نَشْرَحْ

مكّيّة، وهي ثمان آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾

/ ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾. لمّا كان الصدر محلًّا لأحوال النفس ومخزنًا لسرائرها مِن العلوم والإدراكات والمَلَكات والإرادات وغيرها عُبِّر بشرحه عن توسيع دائرة تصرّفاتها بتأييدها بالقوّة القدسيّة وتحليتها بالكمالات الأنسيّة، أي: ألم نفسحه حتّى حوى عالمَي الغيب والشهادة وجَمَع بين ملكتَي الاستفادة والإفادة، فما صدَّك الملابسةُ بالعلائق الجسمانيّة عن اقتباس أنوار المَلَكات الروحانيّة وما عاقك التعلُّقُ بمصالح الخَلْق عن الاستغراق في شئون الحقّ. [٣٠٥ظ]

وقيل: أريدَ به ما رُوي أنّ جبريلَ[١] أتى رسول الله صلّى الله عليهما وسلّم في صباه أو يوم المِيثاق فاستخرج قلبه فغسله ثمّ ملأه إيمانًا وعِلمًا.[٢]

ولعلّه تمثيلٌ لِما ذُكر، أو أنموذج جسماني ممّا سيظهر له عليه السلام مِن الكمال الروحاني. والتعبيرُ عن ثبوت الشرح بالاستفهام الإنكاري عن انتفائه للإيذان بأنّ ثبوته مِن الظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير "بلى".

وزيادة الجارّ والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ الشرح مِن منافعه عليه السلام ومصالحه مسارعةً إلى إدخال المَسرّة في قلبه عليه السلام وتشويقًا له إلى ما يعقبه ليتمكّن عنده وقتَ وروده فضلَ تمكّن.

---

١ س + عليه السلام.

٢ الحديث بمعناه في مسند أحمد، ٤٥٥/٢١ (١٤٠٦٩)؛ وصحيح مسلم، ١٤٧/١ (٢٦١)؛ وبلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٤٥/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ عطفٌ على ما أشيرَ إليه مِن مدلول الجملة السابقة كأنّه قيل: قد شرحنا صدرك ووضعنا... إلخ، و﴿عَنكَ﴾ متعلِّق بـ﴿وَضَعۡنَا﴾، وتقديمُه على المفعول الصريح مع أنّ حقّه التأخّر عنه لِما مرّ آنفًا مِن القصد إلى تعجيل المَسرّة والتشويق إلى المؤخَّر، ولِما أنّ في وصفه نوعَ طولٍ، فتأخيرُ الجارّ والمجرور عنه مخِلّ بتجاوب أطراف النظم الكريم، أي: حططنا عنك عِبأك الثقيل.

﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ أي: حَمَلَه على النقيض وهو صوت الانقضاض والانفكاك، كما يُسمع مِن الرحل المتداعي إلى الانتقاض مِن ثِقَل الحِمْل، مُثِّل به حالُه عليه السلام ممّا كان يثقل عليه ويغمّه مِن فرطاته قبل النبوّة، أو مِن عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع، أو مِن تهالكه على إسلام المعانِدين مِن قومه وتلهُّفه، ووضعُه عنه مغفرتَه وتعليمَ الشرائع وتمهيدَ عذرِه بعد أن بلّغ / وبالغَ. [٣٠٦و]

وقُرئ: "وَحَطَطْنَا"[١] و"حَلَلْنَا"[٢] مكان ﴿وَضَعۡنَا﴾، وقُرئ: "وَحَلَلْنَا عَنْكَ وِقْرَكَ".[٣]

﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ بعنوان النبوّة وأحكامها أيّ رفع، حيث قُرن اسمه باسم الله تعالى في كلمة الشهادة والأذان والإقامة، وجُعل طاعتُه طاعتَه تعالى، وصلّى عليه هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وسُمّي رسولَ الله ونبيَّ الله. والكلام في العطف وزيادة ﴿لَكَ﴾ كالذي سلف.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ تقرير لِما قبله ووعدٌ كريم بتيسير كلّ عسير له عليه السلام وللمؤمنين، كأنّه قيل: خوّلناك ما خوّلناك مِن جلائل النِّعَم فكن على ثقة بفضل الله تعالى ولطفه، فإنّ مع العسر يسرًا كثيرًا. وفي كلمة ﴿مَعَ﴾ إشعارٌ بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنّه مقارن للعسر.

﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ تكرير للتأكيد، أو عِدَة مستأنفة بأنّ العسر مشفوع بيسر آخرَ كثواب الآخرة، كقولك: "إنّ للصائم فرحةً إنّ للصائم فرحةً"، أي:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

فرحةً عند الإفطار وفرحةً عند لقاء الربّ، وعليه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لن يغلب عسرٌ يسرين»،[١] فإنّ المعرّف إذا أعيدَ يكون الثاني عينَ الأوّل سواء كان معهودًا أو جنسًا، وأمّا المنكّر فيحتمل أن يراد بالثاني فردٌ مغاير لِما أريدَ بالأوّل.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: مِن التبليغ. وقيل: مِن الغَزْو[٢] ﴿فَٱنصَبْ﴾ فاجتهد في العبادة واتعب شكرًا لِما أوليناك مِن النِّعَم السالفة ووعدناك مِن الآلاء الآنفة. وقيل: فإذا فرغت مِن صلاتك فاجتهد في الدعاء.[٣] وقيل: إذا فرغت مِن دنياك فانصَب في صلاتك.[٤]

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحدَه ﴿فَٱرْغَب﴾ بالسؤال، ولا تسأل غيره، فإنّه القادر على إسعافه لا غيره. وقُرئ: "فَرَغِّبْ"،[٥] أي: فرغِّب الناس إلى طَلَب ما عنده.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾، فكأنّما جاءني وأنا مغتمّ ففرج عنّي».[٦]

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٤٩٥/٢٤؛ المستدرك للحاكم، ٥٧٥/٢ (٣٩٤٩)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٣٥٩/١٢ (٩٥٣٨)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨.

٢ مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٤٤٩٨/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٣ مرويّ عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٤٩٧/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٤ مرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٤٤٩٩/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٢٤/٢٩ (الضحى، ١/٩٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥١٥/٤ (الضحى، ١/٩٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤. وهو جزء مِن حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة ألم نشرح

وتُسمَّى سورة الشرح، وهي كما روي عن ابن الزبير وعائشة مكِّيَّةٌ، وأخرج ذلك ابنُ الضريس والنحَّاس والبيهقيُّ وابن مردويه عن ابن عباس[1]، وفي روايةٍ عنه زيادة: نزلت بعد الضحى.

وزعم البقاعيُّ أنَّها عنده مدنيَّة[2].

وفي حديثٍ طويل أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ما هو ظاهرٌ في أنَّ قوله تعالى فيها: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ نزل بالمدينة، لكن في صحَّة الحديث توقُّفٌ.

وآيها ثمان بالاتفاق، وهي شديدةُ الاتِّصال بسورة الضحى، حتى إنَّه روي عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان: هما سورةٌ واحدة، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وعلى ذلك الشيعة، كما حكاه الطبرسيُّ منهم[3].

قال الإمام: والذي دعا إلى ذلك هو أنَّ قوله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ) كالعطف على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ [الضحى: ٦] وليس كذلك؛ لأنَّ الأوَّل كان عند اغتمام الرسول ﷺ من إيذاء الكفرة، وكانت الحالةُ حال محنةٍ وضيقِ صدر، والثاني يقتضي أن يكون حالَ النزول منشرحَ الصدر طيِّبَ القلب، فأنَّى يجتمعان[4]؟!

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦٣، وهو في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٤.

(٢) نظم الدرر ٢٢/ ١١٦.

(٣) مجمع البيان ٣٠/ ١٧١.

(٤) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٢.

وفيه نظر، والحقُّ أنَّ مدارَ مِثْلِ ذلك الروايةُ لا الدرايةُ، والمتواتر كونهما سورتين، والفصلُ بينهما بالبسملة، نعم هما متصلتان معنًى جدًّا، ويدلُّ عليه ما في حديث الإسراء الذي أخرجه ابن أبي حاتم أنَّ الله تعالى قال له عليه الصلاة والسلام: يا محمد ألم أجدكَ يتيماً فآويت، وضالًّا فهديت، وعائلاً فأغنيت، وشرحت لك صدرَك، وحططتُ عنكَ وزرَكَ، ورفعتُ لك ذكرك، فلا أُذكرُ إلَّا ذكرتَ معي. الحديث[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ الشرحُ في الأصل: الفسح والتوسعة، وشاع استعماله في الإيضاح، ومنه شَرَحَ الكتاب: إذا أوضحَه؛ لما أنَّ فسح الشيء وبسطَه مستلزمٌ لإظهار باطنه وما خفيَ منه، وكذا شاعَ في سرور النفس، حتى لو قيل: إنَّه حقيقةٌ عرفيَّةٌ فيه لم يبعد، وذلك إذا تعلَّق بالقلب، كأنْ قيل: شَرَحَ قلبه بكذا، أي: سرَّه به؛ لما أنَّ القلبَ كالمنزلِ للنفس، ويلزمُ عادةً مِن فَسْحِ المنزل وتوسعتِه سرورُ النازل فيه، وكذا إذا تعلَّق بالصدر الذي هو محلُّ القلب، وربما يؤذِن ذلك بسعَة القلب؛ لما أنَّ العادة كالمطَّردة في أنَّ توسعةَ ما حوالي المنزل إنَّما تكون إذا كان المنزلُ واسعاً، فيوسَّع ما حواليه لتحصيل زيادة بهجةٍ ونحوها فيه، فينتقل منه إلى سرورِ النفس بالواسطة، وقد يراد به إذا تعلَّق بالقلب أو الصدر أيضاً تكثيرُ ما فيه من المعلومات، فقيل: يتخيَّل أنَّها تحتاجُ إلى فضاءٍ تكون فيه، وأنَّ ذلك محلٌّ لها، فمتى كانت كثيرةً اقتضت أنْ يكون محلُّها واسعاً ليسعها، وقد يراد به تكثيرُ ما في النفس من ذلك، فقيل أيضاً بتخيل أنَّ تكثير معلوماتها يستدعي توسيعَها، وتوسيعُها يستدعي توسيعَ ذلك لتنزيله منزلة محلِّها، وقد يراد به تأييد النفس بقوَّةٍ قدسيَّةٍ وأنوارٍ إلهيَّةٍ، بحيثُ تكون ميداناً لمواكب المعلومات، وسماءً لكواكب الملَكات، وعرشاً لأنواع التجلِّيات، وفَرْشاً لسوائم الواردات، فلا يشغلُه شأنٌ عن شأن، ويستوي لديه يكون وكائن وكان.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦٤.

ووجه نسبته إلى الصدر على نحو ما مرّ، وإرادةُ القلب من الصدر والنفسِ من القلب بعلاقة المحلّية ونحوِها[1]، مِمَّا لا تميلُ إليه النفس. وإرادةُ كلٍّ مِمَّا ذكر بقرينة المقام، والأنسبُ بمقام الامتنان هنا إرادةُ هذا المعنى الأخير، وجُوِّزَ غيرُه، فالمعنى: ألم نفسح صدرك حتى حوى عالمي الغيب والشهادة، وجَمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة، فما صدَّك الملابسةُ بالعلائق الجسمانيَّة عن اقتباس أنوار الملَكَات الروحانيَّة، وما عاقكَ التعلُّق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحقّ.

وقيل: المعنى: ألم نُزِل همَّكَ وغمَّك بإطلاعك على حقائق الأمور وحقارة الدنيا، فهان عليك احتمالُ المكاره في الدعاء إلى الله تعالى.

ونقل عن الجمهور أنَّ المعنى: ألم نفسحه بالحكمة، ونوسِّعه بتيسيرنا لك تلقِّيَ ما يُوْحَى إليك بعدما كان يشقُّ عليك.

وعن ابن عباس وجماعة أنَّه إشارةٌ إلى شقِّ صدره الشريف في صباه عليه الصلاة والسلام، وقد وقع هذا الشقُّ ـ على ما في بعض الأخبار ـ وهو عند مرضعته حليمة، فقد روي عنها أنَّها قالت في شأنه عليه الصلاة والسلام: لم نزل نتعرَّفُ من الله تعالى الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاه، وفصلتُه، فكان يشِبُّ شباباً لا يشبُّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً، فقدمنا به على أمِّه ونحن أحرصُ شيءٍ على بقائه عندنا لِمَا نرى من بركته، فقلنا لأمِّه: لو تركتيه عندنا حتى يَغْلُظَ، فإنَّا نخشى عليه وباءَ مكَّة، فلم نزل بها حتى ردَّته معنا، فرجعنا به، فوالله إنَّه لبعد مقدمنا به بشهرٍ أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة لفي بَهْم لنا خلفَ بيوتنا، جاء أخوه يشتدُّ فقال: ذاك أخي القرشيُّ، قد جاءه رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأضجعاه وشقَّا بطنَه. فخرجتُ أنا وأبوه نشتدُّ نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أي بني، ما شأنُك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأضجعاني فشقَّا بطني، ثم استخرَجا منه شيئاً فطرحاه، ثم ردَّاه كما كان. فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيتُ أن يكون ابني قد أصيبَ، فانطلقي فردِّيه

(١) وقع فوقها في الأصل: عطف على المحلية. منه.

إلى أهله قبل أنْ يظهر به ما نتخوَّفه. قالت: فاحتملناه إلى أمِّه، فقالت: ما ردَّكُما به، فقد كنتما حريصين عليه؟ قلنا: نخشى الاختلاف والأحداث. فقالت: ما ذاك بكما، فاصدقاني شأنكما. فلم تَدَعَنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان، لا والله، ما للشيطان عليه سبيل، وإنَّه لكائنٌ لابْنِي هذا شأن، فدعاه عندكما.

وفي حديث لأبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر ما يدلُّ على تكرُّر وقوع ذلك له عليه الصلاة والسلام وهو عند حليمة[1].

وقد وقعَ له ﷺ أيضاً بعدَ بلوغه ﷺ، ففي «الدر المنثور»: أخرج عبد الله بنُ أحمد في «زوائد المسند»[2] عن أبيِّ بن كعب أنَّ أبا هريرة قال: يا رسول الله ما أوَّلُ ما رأيت من أمر النبوَّة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألتَ أبا هريرة! إنِّي لفي صحراءَ ابن عشرين سنة[3] وأشهر، إذا بكلامٍ فوق رأسي، وإذا رجلٌ يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوهٍ لم أرها بخَلْقٍ قطُّ، وأرواحٍ لم أجدها من خَلْقٍ قطُّ، وثيابٍ لم أجدها على أحدٍ قطُّ، فأقبلا إليَّ يمشيان، حتى إذا دَنَيا أخذَ كلُّ واحدٍ منهما بعضُدي، لا أجدُ لأخذهما مَسًّا، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دمٍ ولا وجع، فقال له: أخرج الغِلَّ والحَسَد، فأخرج شيئاً كهيئة العَلَقَة، ثمَّ نبذها،

---

(١) مسند أبي يعلى (٧١٦٣)، ودلائل النبوة ١/ ١٣٣-١٣٦، وتاريخ دمشق ٣/ ٨٨-٩٠. وهو عندهم من حديث حليمة السعدية، ولفظه قريب مما ذكره المصنف عن ابن عباس، وليس فيه ما يشير إلى تكرر وقوع ذلك وهو عند حليمة، وإن كان شق صدره عليه الصلاة والسلام قد تكرر كما سيرد لاحقاً، وينظر تفصيل ذلك في فتح الباري ٧/ ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) برقم (٢١٢٦١)، ومن طريق عبد الله أخرجه الضياء في المختارة (١٢٦٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٤٦٣-٤٦٤، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الدلائل (١٦٦)، ووقع في مطبوع الدر المنثور ٦/ ٣٦٣: زوائد الزهد.

(٣) كذا في الدر المنثور، والذي في مسند أحمد: عشر سنين. ومثله في باقي المصادر. وجاء في شرح المواهب اللدنية للزرقاني ١/ ١٥٣: وروي شق صدره وهو ابن عشرين سنة فيما قيل، ولا تثبت، فلا تذكر إلا مقرونة ببيان عدم الثبوت.

فقال له: أدخل الرأفةَ والرحمةَ، فإذا مثلُ الذي أخرجَ شبهَ الفِضَّة، ثم هزّ[١] إبهامَ رجلي اليمنى، وقال: اغدُ واسْلَم، فرجعتُ أغدو بها رأفةً على الصغير ورحمةً على الكبير».

والذي رأيته في «شرح الهمزية» لابن حجر المكّي روايةُ هذا الخبر بلفظٍ آخر، وفيه: «إنِّي لفي صحراءَ واسعة، ابنُ عشر حجج، إذا أنا برجلين فوق رأسي، يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ إلى آخر ما فيه»[٢]. فيكون الشقُّ عليه قبل البلوغ أيضاً، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّه على الروايتين ليس نصًّا على نفي وقوع شقٍّ قبله؛ لجواز أن يكون الذي استشعرَ منه النبوَّةَ هو هذا لا ما قبله، ووقعَ له عليه الصلاةُ والسلام أيضاً عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء، ومِمَّن روى ذلك الطيالسيُّ والحارث في «مسنديهما» وكذا أبو نعيم، ولفظه: أنَّ جبريلَ وميكائيل عليهما السلام شقَّا صدرَه وغسلاه، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات[٣].

ووقع أيضاً مَرَّةً أخرى تواترت بها الروايات ـ خلافاً لمن أنكرها ـ ليلةَ الإسراء به ﷺ، روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبيِّ ﷺ قال: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، فأُتيت بطَسْتٍ من ذهبٍ فيها ماءُ زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا»[٤]. قال قتادة: قلت ـ يعني لأنس ـ ما تعني؟ قال: إلى أسفل بطني. قال: «فاستُخرِجَ قلبي، فغسِل بماء زمزم، ثم أعيدَ مكانه، ثم حُشِيَ إيماناً وحكمةً[٥]، ثم أتى بدابَّةٍ

---

(١) في (م): حز.

(٢) شرح الهمزية لابن حجر الهيتمي ص١٤٨.

(٣) مسند أبي داود الطيالسي (١٦٤٣)، ومسند الحارث (٩٢٨ - بغية الباحث)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١٦٣).

(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: وفي رواية في البخاري: «فشق من النحر إلى مراقِّ البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم مُلئ حكمةً وإيماناً». وروي بغير ذلك. اهـ.

(٥) إلى هنا بلفظ الترمذي. وهي نهاية الرواية عنده.

دونَ البغل وفوق الحمار، البراق، فانطلقتُ مع جبريل عليه السلام حتى أتينا السماء الدنيا» الحديث[١].

وطعن القاضي عبدُ الجبار في ذلك بما حاصله أنَّه يلزمُ على وقوعه في الصغر وقبل النبوَّة تقدُّمُ المعجزة على النبوة، وهو لا يجوز، ووقوعُه بعد النبوَّة - وإن لم يلزم عليه ما ذكر - إلَّا أنَّ ما ذُكر معه من حديث الغَسْل، وإدخال الرأفة والرحمة، وحشوِ الإيمان والحكمة، يرِدُ عليه أنَّ الغَسْلَ مِمَّا لا أثرَ له في التكميل الروحاني، وإنَّما هو لإزالة أمرٍ جسمانيٍّ، وأنَّه لا يصحُّ إدخالُ ما ذُكر وحشوُه، فإنَّما هو شيءٌ يخلقُه الله تعالى في القلب.

وليس بشيءٍ؛ فإنَّ تقدُّم الخارق على النبوَّة جائزٌ عندنا، ونسميه إرهاصاً، والأخبارُ كثيرةٌ في وقوعه له عليه الصلاة والسلام قبلَ النبوة، والغسلُ بالماء كان لإزالة أمرٍ جسمانيٍّ، ولا يبعدُ أنْ يكون إزالتُه وغَسْلُ المحلِّ بماءٍ مخصوصٍ - كماء زمزم، على ما صحَّ في بعض الروايات، ولذا قال البلقينيُّ[٢]: إنَّه أفضلُ من ماءِ الكوثر - موجباً لتبديل المزاج، وهو مِمَّا له دخلٌ في التكميل الروحانيّ، ولذا يأمرُ المشايخُ السالكين لديهم بالرياضة التي يحصلُ بها تبديل المزاج، ويرشدُ إلى ذلك تغيُّر أحوال النفس وأخلاقها صباً وكهولةً وشيخوخةً، والمراد من إدخال الرأفة وحشو الإيمان مثلاً إدخالُ ما به يحصلُ كمال ذلك، وكثيراً ما يسمَّى المسبَّب باسم السبب مجازاً، ويحتمل أن يكون على حقيقته، وتجسُّم المعاني جائز.

وقال العارف بن أبي جمرة[٣] - كما في «المواهب اللدنية» للقَسْطَلَّاني[٤] - ما حاصله: إنَّ ما دلَّ كلامُ النبيِّ ﷺ على جوهريَّته وجسميَّته من أعيان المخلوقات التي ليس للحواسِّ إلى إدراكها سبيلٌ هو كما دلَّ عليه كلامُه عليه الصلاة والسلام

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧)، وصحيح مسلم (١٦٤)، وسنن الترمذي (٣٣٤٦)، والمجتبى للنسائي ١/ ٢١٧.

(٢) كما في المواهب اللدنية للقسطلاني ٦/ ٣١.

(٣) هو عبد الله بن أبي جمرة المحدث المقرئ العارف بالله، له مختصر البخاري، وشرحه بهجة النفوس. توفي سنة (٦٩٩هـ). شجرة النور الزكية ص١٩٩.

(٤) في الأصل و(م): للعسقلاني، والصواب ما أثبتناه.

في نفس الأمر، وإنَّ الحكمَ من المتكلم أو نحوه عليها بالعَرَضيَّة إنَّما هو باعتبار ما ظهرَ له بعقله، وللعقل حدٌّ يقفُ عنده، والحقيقة في الحقيقة: ما دلَّ عليه خبر الشارع المؤيَّدُ بالوحي الإلهيِّ والنور القدسيِّ، المحلّقُ بجناحيهما في جوِّ الحقائق إلى حيثُ لا يُسمع لنحلة العقل دندنةٌ ولا للرواة عنه عنعنة، فالإيمان والحكمة ونحوهما مِمَّا دلَّ[١] كلامُ النبيِّ ﷺ على جوهريتها جواهرُ محسوسةٌ لا معان، وإنْ حَسِبَها مَن حَسِبَها كذلك. انتهى.

والأمر فيه اعتقاداً وإنكاراً إليك، ولا ألزِمُك الاعتقاد، فما أريد أن أشقَّ عليك.

وقال بعضُ الأجلَّة: لعلَّ ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيلُ المعاني قد وقع كثيراً، كما مُثِّل له عليه الصلاة والسلام الجنَّةُ والنار في عرض حائطِ مسجده الشريف[٢]، وفائدتُه كشفُ المعنويِّ بالمحسوس.

وهو ميلٌ إلى عدم الوقوع حقيقةً، وقد قال غير واحدٍ: جميعُ ما وردَ من الشقِّ وإخراج القلب وغيرهما يجبُ الإيمان به، وإن كان خارقاً للعادة، ولا يجوز تأويله[٣] لصلاحية القدرة له، ومن زَعم ذلك وقع في هوَّة المعتزلة في تأويلهم نصوصَ سؤال الملكين وعذاب القبر ووزن الأعمال والصراط وغير ذلك بالتشهِّي، وأمَّا حكمةُ ذلك مع إمكان إيجاد ما ترتَّب عليه بدونه، فقد أطالوا الكلام في بيانها في موضعه.

نعم، حملُ الشرح في الآية على ذلك الشقِّ ضعيفٌ عند المحققين. والتعبيرُ عن ثبوت الشرح بالاستفهام الإنكاريِّ عن انتفائه للإيذان بأنَّ ثبوتَه من الظهور بحيثُ لا يقدر أحدٌ أن يجيبَ عنه بغير: بلى.

---

(١) بعدها في (م): عليه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٠)، ومسلم (٢٣٥٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: وفي صحيح مسلم عن أنس أنه رأى أثر الشقِّ في صدره الشريفِ ﷺ. اهـ منه. وحديث أنس في صحيح مسلم برقم (١٦٢): (٢٦١) بلفظ: وقد كنت أرى أثر المِخْيَطِ في صدره.

وإسنادُ الفعل إلى ضمير العظمة للإيذان بعظمته وجلالة قدره، وزيادةُ الجارِّ والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله؛ للإيذان من أوَّل الأمر بأنَّ الشرحَ من منافعه عليه الصلاة والسلام ومصالحه؛ مسارعةً إلى إدخال المسرَّة في قلبه الشريف ﷺ، وتشويقاً له عليه الصلاة والسلام إلى ما يعقُبه؛ ليتمكَّن عندَه وقتَ وروده فضلَ تمكُّن.

وقرأ أبو جعفر المنصور: «ألم نشرحَ» بفتح الحاء[١]، وخرَّجَهُ ابن عطيَّة[٢] وجماعةٌ على أنَّ الأصل: ألم نشرحَنْ بنون التأكيد الخفيفة، فأبدلَ من النون ألفاً، ثم حذفها تخفيفاً، كما في قوله:

اِضْرِبَ عنك الهمومَ طارقَها ... ضربَك بالسَّيف قونسَ الفرسِ[٣]

ولا يخفى أنَّ الحذف هنا أضعفُ مِمَّا في البيت؛ لأنَّ ذلك في الأمر، وهذا في النفي، ولهذا رَوى ابن جني في المنتقي عن ابن[٤] مجاهد أنَّه غيرُ جائز أصلاً، فنون التوكيد أشبه شيءٍ به الإسهاب والإطناب، لا الإيجاز والاختصار، والبيتُ يقال: إنه مصنوعٌ، والأولَى في التمثيل ما أنشده أبو زيد في «نوادره»[٥]:

من أيِّ يوميَّ من الموت أفرّ ... أيومَ لم يقدَرَ أم يوم قُدِرْ[٦]

وقال غيرُ واحد: لعلَّ أبا جعفر بيَّنَ الحاء وأشبعَها في مخرجها، فظنَّ السامع أنَّه فتحها.

---

(١) المحتسب ٢/٣٦٦، والكشاف ٤/٢٦٦، والبحر المحيط ٨/٤٨٧.
(٢) في المحرر الوجيز ٥/٤٩٦.
(٣) البيت لطرفة، وسلف عند تفسير الآية (٢٤) من سورة «ص».
(٤) في الأصل و(م): أبي. والمثبت من المحتسب ٢/٣٦٦.
(٥) ص١٣.
(٦) نوادر أبي زيد ص ١٣، والبيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في ديوانه ص٤٣، وحماسة البحتري ص٤٥، والعقد الفريد ١/١٠٥، وشرح شواهد العيني ٤/٤٤٧-٤٤٨، وهو دون نسبة في سر صناعة الإعراب ١/٧٥، والخصائص ٣/٩٤، والمحتسب ٢/٣٦٦، والخزانة ١١/٤٥١.

وفي «البحر» أنَّ لهذه القراءة تخريجاً أحسن مِمَّا ذُكر، وهو أنَّ الفتحَ على لغة بعض العرب من النصب بـ «لم»، فقد حكى اللحيانيُّ في «نوادره» أنَّ منهم من ينصبُ بها، ويجزم بـ «لن»، عكسَ المعروف عند الناس، وعلى ذلك قولُ عائشة بنت الأعجم تمدحُ المختار بن أبي عبيد:

في كلِّ ما هَمَّ أمْضَى رأيَه قُدُماً ولم يُشاورَ في الأمر الذي فعلا[1]

وخرَّجها بعضُهم على أنَّ الفتحَ لمجاورة ما بعدها، كالكسر في قراءة: «الحمدِ لله» بالجرِّ[2]، وهو لا يتأتَّى في بيت عائشة، ويتأتَّى فيما عداه مِمَّا مرَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ عطفٌ على ما أشير إليه من مدلول الجملة السابقة، كأنَّه قيل: قد شرحنا لك صدرَك ووضعنا.. إلخ. و«عنك» متعلِّقٌ بـ «وضعنا»، وتقديمه على المفعول الصريح؛ لما مرَّ من القَصْدِ إلى تعجيل المسرَّة والتشويقِ إلى المؤخَّر، ولما أنَّ في وصفه[3] نوعَ طولٍ، فتأخير الجارِّ والمجرور عنه مخلٌّ بتجاوب أطراف النظم الكريم.

والوزر: الحملُ الثقيل، أي: وحططنا عنك حملك الثقيل ﴿الَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ أي: حَمَلَه على النقيض، وهو صوتُ الانتقاض والانفكاك، أعني: الصرير، ولا يختصُّ بصوت المَحَامل والرجال، بل يضافُ إلى المفاصل، فيقال: نقيض المفاصل، ويراد صوتها، فنقيض الظهر: ما يسمعُ من مفاصله من الصوت لثقل الحمل، وعليه قول عباس بن مرداس:

وأنقضَ ظهري ما تطوَّيتُ منهم وكنتُ عليهم مشفقاً متحنِّناً[4]

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٨، والشطر الثاني فيه، وفي الدر المصون ١١/ ٤٤، وفي اللباب ٢٠/ ٣٩٧:

ولم يشاور في إقدامه أحداً

(٢) هي قراءة الحسن البصري ورؤبة كما في القراءات الشاذة ص٧.

(٣) في الأصل: وضعه، وهو خطأ. والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٩/ ١٧٢.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٨، والدر المصون ١١/ ٤٥، واللباب ٢٠/ ٣٩٩.

وإسنادُ الإنقاض للحمل إسنادٌ للسبب الحامل مجازاً، والمراد بالحمل المنقِضِ هنا ما صدر منه ﷺ قبلَ البعثة مِمَّا يشقُّ عليه ﷺ تذكُّره؛ لكونه في نظره العالي دون ما هو عليه عليه الصلاة والسلام بعدُ، أو غفلتُه عن الشرائع ونحوها مِمَّا لا يُدْرَك إلَّا بالوحي، مع تطلُّبه ﷺ له، أو حيرتُه عليه الصلاة والسلام في بعض الأمور، كأداءِ حقِّ الرسالة، أو الوحي وتلقِّيه، فقد كان يثقل عليه ﷺ في ابتداء أمره جدًّا، أو ما كان يَرى ﷺ من ضلال قومِه مع العَجز عن إرشادهم؛ لعدم طاعتهم له وإذعانهم للحق، أو ما كان يرى من تعدِّيهم في إيذائه عليه الصلاة والسلام، أو همُّه عليه الصلاة والسلام من وفاة أبي طالب وخديجة بناءً على نزول السورة بعد وفاتهما.

ويراد بوضعه على الأول: مغفرتُه، وعلى الثاني: إزالةُ غفلته عليه الصلاة والسلام عنه بتعليمه إيَّاه بالوحي ونحوه، وعلى الثالث: إزالةُ ما يؤدِّي للحيرة، وعلى الرابع: تيسيرُه له ﷺ بتدرُّبه واعتياده له، وعلى الخامس: توفيقُ بعضهم للإسلام كحمزة وعمر وغيرهما، وعلى السادس: تقويتُه ﷺ على التحمُّل، وعلى السابع: إزالةُ ذلك برفعه إلى السماء حتى لقيَه كلُّ ملكٍ وحيَّاه، وفوزُه بمشاهدة محبوبه الأعظم ومولاه عزَّ وجلَّ.

وأيًّا ما كان ففي الكلام استعارةٌ تمثيليَّةٌ، والوضعُ ترشيح لها. وليس فيه دليلٌ لنا في العصمة، كما لا يخفى.

واختار أبو حيَّان كونَ وضع الوزر كنايةً عن عصمته ﷺ عن الذنوب، وتطهيره من الأدناس، عبَّر عن ذلك بالوضع على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، كما يقول القائل: رفعتُ عنك مشقَّة الزيارة، لمن لم يصدر منه زيارةٌ، على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه له[1].

والتمثيلُ عليه بحاله على ما قيل. وقيل: المراد: وزر أمتك، وإنَّما أُضيف إليه ﷺ لاهتمامه بشأنه وتفكُّره في أمره، والمراد بوضعه رفع غائلته في الدنيا من

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٨.

العذاب العاجل ما دام ﷺ فيهم، وما داموا يستغفرون، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] ولا يخفى بعدُ هذا الوجه.

وقرأ أنس: «وحططنا»، «وحللنا» مكان: «ووضعنا»[١].

وقرأ ابن مسعود: «وحللنا عنك وقرك»[٢].

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ بالنبوّة وغيرها، وأيُّ رفعٍ مثل أنْ قرن اسمه عليه الصلاة والسلام باسمه عزَّ وجلَّ في كلمتي الشهادة، وجعلَ طاعتَه طاعته، وصلّى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وخاطبه بالألقاب، ك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، وذكره سبحانه في كتب الأوّلين، وأخذ على الأنبياء عليهم السلام وأممهم أنْ يؤمنوا به ﷺ.

وروي عن مجاهد وقتادة ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وغيرهم أنَّهم قالوا في ذلك: لا أُذكَر إلا ذُكرتَ معي، وفيه حديثٌ مرفوع، أخرج أبو يعلى وابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» عن أبي سعيد الخدريّ عن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريلُ عليه السلام فقال: إنَّ ربَّك يقول: أتدري كيف رفعتُ ذكرَك؟ قلتُ: الله تعالى أعلم. قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي»[٣]. وكأنَّ ذلك من الاقتصار على ما هو أعظمُ قدراً من إفراد رفع الذكر، ويشير إلى عظم قدره قول حسان:

أغرُّ عليه للنبوّة خاتمٌ ... من الله مشهودٌ يلوح ويُشهَدُ
وضمَّ الإله اسمَ النبيِّ إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أشهدُ[٤]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥، والكشاف ٤/ ٢٦٦، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٥٧.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٥، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٢، والكشاف ٤/ ٢٦٦، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٥٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧.

(٣) مسند أبي يعلى (١٣٨٠)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٥، وصحيح ابن حبان (٣٣٨٢)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٦/ ٣٦٤.

(٤) ديوان حسان ص١٣٤.

ولا يخفى لطفُ ذكر الرفع بعد الوضع، والكلامُ في العطف وزيادة «لك» كالذي سلف.

والفاء في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ على ما في «الكشاف» فصيحةٌ، والكلام وعدٌ له ﷺ مسوقٌ للتسلية والتنفيس، قال: كان المشركون يعيِّرون رسولَ الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضِّيقة، حتى سبق إلى ذهنه الشريف عليه الصلاة والسلام أنَّهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم، فذكَّره سبحانَه ما أنعم به عليه من جلائل النعم، ثم قال تعالى شأنه: «إنَّ مع العسر يسراً» كأنَّه قال سبحانه: خوَّلناك ما خوَّلناك، فلا تيأس من فضل الله تعالى، فإنَّ مع العسر الذي أنتم فيه يسراً[1].

وهو ظاهرٌ في أنَّ «أل» في «العسر» للعهد، وأمَّا التنوين في «يسراً» فللتفخيم، كأنَّه قيل: إنَّ مع العسر يسراً عظيماً، وأيّ يسر، والمراد به ما تيسَّر لهم من الفتوح في أيَّام رسول الله ﷺ، أو يسرُ الدنيا مطلقاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ يحتملُ أن يكون تكريراً للجملة السابقة لتقرير معناها في النفوس وتمكينِها في القلوب، كما هو شأن التكرير، ويَحتملُ أنْ يكون وعداً مستأنفاً، و«أل» والتنوين على ما سبق، بيد أنَّ المراد باليسر هنا ما تيسَّر لهم في أيام الخلفاء، أو يسر الآخرة.

واحتمال الاستئناف هو الراجحُ؛ لما عُلِم من فضل التأسيس على التأكيد، كيف وكلامُ الله تعالى محمولٌ على أبلغ الاحتمالين وأوفاهما، والمقام كما تقدَّمَ مقامُ التسلية والتنفيس، والاستئنافُ نحويٌّ، وتجرُّده عن الواو أكثرُ من أنْ يحصى، ولا يحتاج إلى بيان نكتة؛ لأنَّه الأصل.

وقال عصام الدين: لا يبعد أنْ تكون نكتةُ الفصل كونَه في صورة التكرير، فاحفظه فإنَّه من البدائع. وتعقِّبَ بنحو ما ذكرنا.

وكان الظاهر ـ على ما سمعت من المراد باليسر ـ تعريفَه، إلَّا أنَّه أوثر التنكير

(١) الكشاف ٤/ ٢٦٧.

للتفخيم[(١)]، وقد يقال: إنَّ فائدتَه الظهور في التأسيس؛ لأنَّ النكرةَ المعادةَ ظاهرُها التغايرُ والإشعارُ بالفرق بين العسر واليسر.

ويظهر مِمَّا ذكر وجهُ ما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقيُّ عن الحسن قال: خرج رسولُ الله عليه الصلاة والسلام فرحاً مسروراً وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عسرٌ يسرين، إنَّ مع العسر يسراً، إنَّ مع العسر يسراً»[(٢)].

وأفاد بعض الأجلَّة أنَّ الكلامَ تقريرٌ لما قبله، وعِدَةٌ له ﷺ بتيسير كلِّ عسرٍ[(٣)]، فالفاء قيل: سببيَّةٌ، ودخلت على السبب، وإن تعارفَ دخولُها على المسبَّب؛ لتسبب ذكره عن ذكره، فإنَّ ذكر أحدهما يستدعي ذكرَ الآخر، و«أل» في «العسر» للاستغراق، فيدخل فيه سببُ النزول، والتنوين في «يسراً» على ما سبق، كأنَّه قيل: فعلنا لك كذا وكذا؛ لأنَّ مع كلِّ عسرٍ كضيق الصدر والوزر المنقض للظهر والخمول يسراً عظيماً كالشرح والوضع ورفع الذكر، فلا تيأس من رَوْح الله تعالى إذا عَرَاك ما يغمُّك.

وقال بعضهم: الفاء للتفريع، وهو من قبيل تفريع الحكم على الدليل في صورة الاستدلال بالجزئيِّ على الكليِّ، وذلك كما تقول: أمَا ترى إلى الإنسان والفرس والغنم كلِّها تحرِّك الفكَّ الأسفل عند المضغ؟ فاعلم بذلك أنَّ كلَّ حيوان يفعلُ كذلك. فتدبَّر.

وفي الجملة الثانية الاحتمالان السابقان، والاستئنافُ أيضاً هو الراجح؛

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وذكر بعضهم أنَّ في تعريف العسر وتنكير اليسر إشارةً لطيفةً إلى أن الدنيا دار العسر، فالعسر عند السامع معهود، واليسر مبهم. منه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٤، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٨٠، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٤٩٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٨، والبيهقي في الشعب (١٠٠١٣). وهو مرسل. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٦: وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من طريق عطية عن جابر موصولاً، وإسناده ضعيف، وفي الباب عن عمر ﷺ ذكره مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ﷺ، وهذا أصح طرقه. اهـ، وسيرد خبر عمر قريباً.

(٣) في (م): عسير.

لما تقدَّم، وعلى اتِّحاد العسر وتعدُّد اليسر يكون الحاصلُ من الجملتين أنَّ مع كلِّ عسرٍ يسرين عظيمين، والظاهر أنَّ المرادَ بذينك اليسرين يسرٌ دنيويٌّ ويسرٌ أخرويٌّ.

وقيل: الظاهرُ أنَّ الجملةَ الثانية تكريرٌ للأولى وتأكيدٌ لها، فاليسرُ فيها عينُ اليسر في الأولى، كما أنَّ العسرَ كذلك، والكلام نظيرُ قولك: إنَّ مع الفارس رمحاً، إنَّ مع الفارس رمحاً، وهو ظاهرٌ في وحدة الفارس والرمح، و«لن يغلب عسرٌ يسرين» ليس نصًّا في الحمل على الاستئناف، إذ يصحُّ على التأكيد أيضاً بأن يكون مبنيًّا على كون التنوين في «يسراً» للتفخيم، فحُمل ـ لقوَّة الرجاء ـ على يسر الدارين، وذلك يسران في الحقيقة، ويشهدُ لذلك أنَّه ليس في مصحف ابن مسعود الجملةُ الثانية(١)، مع أنَّه جاء عنه أيضاً: لن يغلبَ عسرٌ يسرين(٢).

وقيل: يمكن أن يُحمَل الخبرُ على أنَّه لن يَغلب فردٌ من أفراد العسر ذِكْرَ اليُسْرِ مرتين، وتكريرَه في مقام الوعد. وهو كما ترى.

والمشهور على جميع الأوجه أنَّه شُبِّه التقارب بالتقارن، فاستعير لفظ «مع» لمعنى بَعْدَ، وذلك للمبالغة في معاقبة اليسرِ العسرَ واتِّصالِه به.

واستشكل أمرُ الاستغراق بأنَّ من العسر ما لا يعقبه يسرٌ دنيويٌّ، كالفقر والمرض الدائمين إلى الموت، ولا أراك ترضَى القول بأنَّ الموتَ يسرٌ دنيويٌّ. وأنَّ من العسر ما لا يعقبه يسرٌ أخرويٌّ أيضاً، كعسر الكافر.

والجوابُ بأنَّ الحكم بالنسبةِ للمؤمنين، كما يقتضيه مقام التسلية والتنفيس، ويشعرُ به ما رواه مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم قال: كتبَ أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذكر له جموعاً من الروم، وما يتخوَّفُ منهم، فكتبَ إليه عمر رضي الله عنه: أمَّا بعد، فإنَّه مهما ينزل بعبدٍ مؤمنٍ شدَّةٌ، يجعل الله تعالى بعده فرجاً، ولن يغلبَ عسرٌ يسرين(٣) = لا يحسمُ الإشكال، إذ يبقى معه أنَّ من عسر المؤمن

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٨٠-٣٨١، والطبري ٢٤/ ٤٩٦.
(٣) الموطأ ٢/ ٤٤٦.

ما لا يعقُبه يسرٌ دنيويٌّ، كما هو ظاهر، بل منه ما لا يعقُبه يسرٌ أخرويٌّ أيضاً، وذلك كعسر المؤمن الجازع، فإنَّه لا يثابُ عليه في الآخرة، والظاهر من اليسر الأخرويِّ هو الثوابُ فيها على ذلك العسر، وإرادةُ المؤمن الصابر يبقى معها أنَّ مِنْ عسره أيضاً ما لا يعقبه اليسرُ الدنيويُّ.

وأجاب بعضٌ على وجه التأكيد بأنَّ الاستغراقَ عرفيٌّ، ويكفي فيه أنَّ العسرَ في الغالب يعقبُه يسرٌ، وعلى وجه التأسيس بهذا، مع كون الحكم بالنسبة للمؤمن الصابر.

وآخرُ بأنَّ الحكمَ مشروطٌ بمشيئته تعالى، وإن لم تذكر. قيل: ويشعر بذلك ما أخرجه عبدُ بن حميد وابنُ جرير عن قتادة في الآية قال: ذُكر لنا أنَّ رسول الله ﷺ بشَّرَ بهذه الآية أصحابَه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لن يَغْلِبَ عسرٌ - إن شاء الله تعالى - يسرين»(١).

ويفهمُ من كلام بعض الأفاضل أنَّه يجوزُ على وجه التأكيد أنْ تكونَ «مع» على ظاهرها، والتنوين في «يسراً» للنوعية، ولا إشكال في الاستغراق، إذ لا يخلو المرءُ في حال العسر عن نوعٍ من اليسر، وأقلُّه دفعُ ما هو أعظم مِمَّا أصابه عنه، ويجوز أنْ يكون التنوينُ للتفخيم أيضاً، ويكون اليسرُ العظيمُ المقارنُ للعسر هو دفعُ ذلك الأعظم، وما من عسر إلَّا وعند الله تعالى أعظمُ منه وأعظم، وأنَّه لا يأبى ذلك: «لن يغلب عسرٌ يسرين»، إمَّا لأن المعنى: لن يغلب فردٌ من أفراد العسر، ذِكْرَ اليسرِ مرتين في مقام التسلية، أو لأنَّ الآيةَ أفادت أنَّ مع العسر يسراً، وقد علم أنَّ بعده آخرُ على ما جرت به العادة الغالبة، أو فهم من قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] إن كان نزوله متقدِّماً.

وذكر بعضهم أنَّ المعية على حقيقتها عند الخاصة، على معنى أنَّ كلَّ ما فَعَلَ المحبوبُ محبوبٌ، كما يشير إليه قول الشيخ عمر بن الفارض قُدِّس سره:

وتعذيبكم عذبٌ لديَّ وجورُكم ... عليَّ بما يقضي الهوى لكُمُ عدلُ(٢)

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/٤٩٦.
(٢) البيت لابن الفارض، وسلف ٢/ ١٥٠.

وقول الآخر:

بَرْ جانَم اَزْ تُو هَرْجِه رَسَدْ جاي مِنَّتَ اسْتْ كَرْ ناوَكِ جَفَا سْت وكَرْ خَنْجَرِ سِتَمْ[(١)]

وتسمية ذلك عسراً؛ لأنَّه في نفسه وعند العامة كذلك، لا بالنسبة إلى مَن أصابه من المحبِّين المستعذِبين له. والكلُّ كما ترى.

ثم إنه يُبعِدُ إرادةَ المعيَّة الحقيقية ما أخرجَه البزَّار وابن أبي حاتم والطبرانيُّ في «الأوسط» والحاكم والبيهقي في «الشعب» عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ جالساً وحياله جُحْرٌ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو جاء العسرُ فدخل هذا الجُحر لجاء اليسر حتى يدخلَ عليه فيخرجَه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إلخ، ولفظ الطبرانيِّ: وتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(٢)].

وإرادةُ العهد أَسْلَمُ من القيل والقال، وكأنَّ مَن اختاره اختاره لذلك، مع الاستئناس له بسبب النزول، لكن الذي يقتضيه الظواهر ومقاماتها الخطابية الاستغراق، فإذا قيل به فلا بدَّ من التقييد بكون من أصابه العسرُ واثقاً بالله تعالى، حَسَنَ الرجاء به عزَّ وجلَّ، منقطعاً إليه سبحانه، أو بنحو ذلك من القيود فتدبَّر، والله تعالى الميسِّر لكل ما يتعسَّر.

وقرأ ابن وثَّاب وأبو جعفر وعيسى: «العسُر» و«يسُرا» في الموضعين بضم السين[(٣)].

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: من عبادة كتبليغ الوحي ﴿فَٱنصَبْ﴾ فاتعب في عبادةٍ أخرى

---

(١) المعنى: كل ما أصابني من طَرَفك (منك) فهو في مقام الامتنان، سواء كان سهم الجفا أو خنجر الظلم.

(٢) البزار (٢٢٨٨ - كشف الأستار)، والطبراني في الأوسط (١٥٢٥)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٥، والبيهقي في الشعب (١٠٠١٣). قال الحاكم: هذا حديث عجيب، غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٩: رواه الطبراني في الأوسط والبزار، وفيه عائذ بن شريح، وهو ضعيف.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٨٨.

شكراً لما عدَّدنا عليك من النعم السالفة ووعدناك من الآلاء الآنفة، كأنَّه عزَّ وجلَّ لَمَّا عدَّد عليه ما عدَّد، ووعده ﷺ بما وعد، بعثَه على الشكر والاجتهاد في العبادة، وأنْ لا يخليَ وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغَ من عبادةٍ أتبعَها بأخرى.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَٱرْغَب﴾ فاحرص بالسؤال، ولا تسأل غيرَه تعالى، فإنَّه القادرُ على الإسعاف لا غيره عزَّ وجلَّ.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه من طرقٍ عن ابن عباس أنَّه قال: أي: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء(١). ورُوي نحوه عن الضحَّاك وقتادة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود: أي: إذا فرغتَ من الفرائض فانصب في قيام الليل(٢).

وعن الحسن: أي: إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم نحوه.

وأخرج ابن نصر وجماعة عن مجاهد: أي: إذا فرغت من أسباب نفسك ـ وفي لفظ: من دنياك ـ فصلِّ(٣). وفي روايةٍ أخرى عنه نحو ما روي عن ابن عباس.

والأنسبُ حمل الآية على ما تقدَّم، وأمَّا قول ابن عباس ومن معه فهو تخصيصٌ لبعض العبادات فراغاً وشغلاً؛ إمَّا مثالاً ـ لا أنَّ اللفظ خاص ـ وهو الأظهر، وكذا يقال فيما رُوي عن ابن مسعود، وإمَّا لأنَّ الصلاةَ أمُّ العبادات البدنيَّة، والدعاءَ مخُّ العبادة، فهما هما.

وقول الحسن لَحِظَ فيه ما شاعَ من قوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(٤)، وهو قريبٌ، إلَّا أنَّه قيل عليه: إنَّ السورة مكِّيَّة، والأمرَ بالجهاد

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٦٥، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (١١٤٦)، والطبري ٢٤/ ٤٩٩.
(٤) حديث ضعيف، وسلف عند تفسير الآية (٩٦) من سورة النساء.

بعد الهجرة، ولعلَّه يقول بمدنيتها، أو مدنية هذه الآية، أو أنَّها مِمَّا تأخَّر حكمُه عن نزولِه، كآيات أُخَر.

وقول مجاهد نَظَر فيه إلى أنَّ الفراغَ أكثرُ ما يستعمل في الخلوِّ عن الأشغال الدنيويَّة، كما في قوله ﷺ: «اغتنم فراغَكَ قبل شُغلك»[1]. وهو أضعفُ الأقوال لبعده عمَّا يقتضيه السياق، وتؤذنُ به الفاء.

وقال عصام الدين: الأنسب أن يراد: «فإذا فرغت» من يسرٍ «فانصب» بعسرٍ آخر، طلباً لليسرين، فإذا كنت كذلك، فكنْ راغباً إلى ربِّك، يعني لا تتحمَّل عسرَ الدنيا طمعاً في يسرين فيها، بل تحمَّل عسرَ طلبِ الربِّ وقربِه جلَّ شأنه لليسرين. انتهى.

ولعَمري إنَّه خلافُ ما يفهمه مَن لا سقم في ذهنه من اللفظ.

وأشعرت الآيةُ بأنَّ اللائقَ بحال العبد أن يستغرقَ أوقاته بالعبادة، أو بأن يَفْرَغَ إلى العبادة بعد أن يفرغ من أمور دنياه، على ما سمعتَ من قول مجاهد فيها، وذكروا أنَّ قعودَ الرجل فارغاً من غير شُغْلٍ، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه، من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة، وعن عمر رضي الله عنه: إنِّي لأكره أنْ أرى أحدكم فارغاً سبهللاً، لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته[2].

وروي أنَّ شريكاً مرَّ برجلين يصطرعان، فقال: ما بهذا أُمِرَ الفارغ.

وقرأ أبو السمَّال: «فَرِغت» بكسر الراء[3]، وهي لغةٌ قال الزمخشريُّ: ليست بفصيحة[4].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٠٦، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٢٤٨). وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢)، وأبو نعيم في الحلية ٤/١٤٨، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٢٩)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١٧٠) من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً.

(٢) الكشاف ٤/٢٦٧، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦: لم أجده. اهـ، وأخرجه بنحوه من قول ابن مسعود وكيع في الزهد (٣٦٩)، وهناد في الزهد (٦٧٦).

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٥، والبحر المحيط ٨/٤٨٨.

(٤) الكشاف ٤/٢٦٧.

وقرأ قومٌ: «فانصبَّ» بشدِّ الياء مفتوحة[١] من الانصباب، والمراد: فتوجَّه إلى عبادةٍ أخرى كلَّ التوجُّه.

ونُسب إلى بعض الإماميَّة أنَّه قرأ: «فانصِب» بكسر الصاد[٢]، فقيل: أي: «فإذا فرغتَ» من النبوَّة «فانصِب» عليًّا للإمامة. وليس في الآية دليلٌ على خصوصيَّة المفعول، فللسُّنيِّ أن يقدِّرهُ أبا بكر رضي الله عنه، فإنِ احتجَّ الإماميُّ بما وقع في غديرِ خُمّ[٣]، منعَ السُّنِّيُّ دلالته ـ على ما ثبتَ عنده ـ على النصب، وصحَّته على ما يرويه الإماميُّ، واحتجَّ لِمَا قدَّره بقوله ﷺ: «مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[٤]، وقال: إنَّه أوفق بـ «إذا فرغت» لما أنَّه صدر منه عليه الصلاة والسلام في مرض وفاته قبيل وفاته ﷺ، بخلاف ما كان في الغدير، فإنَّه لا يظهرُ أنَّ زمانه زمانُ فراغٍ من النبوَّة ظهورَ كون زمان الأمر كذلك، وإن رجع وقال: المراد: فإذا فرغت من الحجِّ فانصِب عليًّا، وَرَدَ عليه أمرُ مكِّيَّة السورة مع ما لا يخفى.

وقال في «الكشاف»: لو صحَّ ذلك للرافضيِّ لصحَّ للناصبيِّ أن يقرأ هكذا، ويجعلَه أمراً بالنصب الذي هو بغضُ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وعداوتُه[٥]. وفيه نظر.

ومن الناس من قدَّرَ المفعولَ: خليفةً، والأمرُ فيه هيِّن.

وقال ابن عطية: إنَّ هذه القراءةَ شاذَّةٌ ضعيفةُ المعنى، لم تثبت عن عالم[٦].

وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة: «فرغِّب»، أمرٌ من رغَّبَ بشدِّ العَيْن[٧]، أي: فرغِّب الناسَ إلى طلب ما عنده عزَّ وجلَّ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٦٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٨، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٦١، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٩.
(٣) سلف ٧/ ٣٦.
(٤) أخرجه البخاري (٧١٢)، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٦٧-٢٦٨.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٨.
(٧) القراءات الشاذة ص١٧٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٩.